التسامح المذهبي في القرنين الأول والثاني للهجرة

ورقة مقدمة إلى المؤتمر الأول لكلية الدراسات
الفقهية والقانونية بجامعة آل البيت
المفرق ــ الأردن

" المذاهب الإسلامية والتحديات المعاصرة "

إعداد : **الدكتور حمزة أبوفارس**
أستاذ مشارك بقسم الشريعة كلية القانون جماعة الفاتح طرابلس ليبيا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

أما بعد فإني لما اطلعت على محاور المؤتمر الأول لكلية الدراسات الفقهية والقانونية بجامعة آل البيت ، وهو بعنوان (المذاهب الإسلامية والتحديات المعاصرة) ، قررت أن أكتب في المحور الخامس ، ثم حالت دون ذلك ظروف لم أستطع معها الكتابة ، وفات موعد تسليم البحوث ، ولم أعد أفكر في المشاركة إلى أن وجدت دعوة جديدة لإرسال البحث في البريد الالكتروني ، فتجدد الأمل لدي ، فكتبت هذه الورقة بعنوان (التسامح المذهبي في القرنين الأول والثاني للهجرة) ، وقسمتها إلى تمهيد وفصلين وخاتمة .

تكلمت في التمهيد عن الإسلام دين الإنسانية جميعا .

الفصل الأول في تسامح الإسلام مع المخالفين في الملة .

الفصل الثاني : في التسامح بين المسلمين .

الخاتمة لخصت فيها نتائج البحث .

وأطلب من الله التوفيق في القول والعمل ولا قوة إلا بالله .

تمهيد

الإسلام دين الإنسانية جميعا

1. مما لا جدال فيه أن الرسالة الخاتمة جاءت للناس كافة فهي عامة ومستمرة إلى يوم القيامة ؛ لأنه لا رسالة بعدها إذ نبيها آخر الأنبئاء كما صرح بذلك القرآن الكريم (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا) (الأعراف 158) .

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ﴾ (سبأ / 28)

إذا فالدين موجه لكل البشر ، ومن ثم جاء وجوب الدعوة إليه من قبل أتباعه، وهذه الدعوة منطلقة من حب الخير للناس ، فخير الناس – في نظر الدين – أنفعهم للناس ، وهو أول أبواب التسامح .

2. الله إله ورب الناس جميعا شاءوا أم أبوا ، هو خلقهم وهو رزقهم ، وهو يتوفاهم ، وهو يحييهم ، يجمعهم ليوم الجمع لا ريب فيه ، ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ (البقرة 163) . ﴿ هل من خالق غير الله ﴾ (فاطر / 3) .

﴿ الله الذي خلقكم ، ثم رزقكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ (الروم/39).

3. الأصل واحد ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ (الحجرات / 13).

4. التكريم الإلهي شامل للإنسانية جميعا ﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ (الإسراء / 7) .

وهذا كله يقرر المساواة ، فيقتضي الاحترام المتبادل ، فيعمق التسامح في الحوار والمعاملة .

الفصل الأول

تسامح الإسلام مع المخالفين في الملة

أصل الدين واحد :

الإسلام لسماحته واتساع أفقه لم يقف من الأديان السماوية السابقة له موقف عداء أو تحد أو نكران ، وما كان له أن يفعل ذلك ؛ لأن أصل هذه الأديان من عند الله ، ومن عقيدة المسلم الإيمان بالرسل والكتب السابقة[1] ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ (البقرة / 285) .

﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ (البقرة / 135) .

المبحث الأول التسامح مع المخالفين منن الملل قي القرآن الكريم

1. الحوار الهادي مع أهل الكتاب :

حاور القرآن الكريم أهل الكتاب حوارا هادئا مبنيا على المبادئ العقلية الثابتة والبراهين الساطعة غير مستفز للمشاعر ؛ لأن الهدف الهداية ، قال تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا و أنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ (العنكبوت / 46) ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾ (العنكبوت/ 50 – 52) .

ورغم عنادهم وإلقائهم الأحكام جزافا دون دليل ، فإن الله – سبحانه – أمر نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يطالبهم بالدليل على قولهم . قال تعالى : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم

---

[1] - إسلام بلا مذاهب ، مصطفى الشكعة ص44 .

صادقين بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجر عند ربه ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون ﴾ (البقرة / 11 – 112) .

2. وتوسعت سورة آل عمران في حوار أهل الكتاب توسعا لم نشهد له مثيلا في القرآن الكريم ، مبينة خلق عيسى من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم ، مؤكدة على أنه رسول من الرسل ، آمرة الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – أن يدعوهم في النهاية إلى المباهلة ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعو أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ (آل عمران / 60) .

وتمادى معهم في الحوار بدعوتهم إلى كلمة سواء عبادة الله وحده وعدم اتخاذ العباد أربابا من دون الله ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلون ﴾ (آل عمران / 63) .

3. حواره لعبدة الأوثان :

أمر الله رسوله أن يحاور أهل الكتاب بطريقة لا استفزاز فيها ولا إثارة ، فإنه أمره أن يحاور المشركين من عبدة الأوثان، مع بعدهم عن الحق وضلالهم البعيد .

قال سبحانه: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموت ولا في الأرض وما لهم فيها من شرك وما له منهم من ظهير ﴾ (سبأ / 22)، ثم استمر في مجادلتهم ﴿ قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم قل أروني الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم ﴾ (سبأ / 24 – 27) . ثم جاءت المفاصلة بين الرسول الكريم وبين هؤلاء الكفار المعاندين الذين لا يقيمون للبراهين والأدلة وزنا ﴿ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون لكم دينكم ولي دين ﴾ (الكافرون / 1 – 6).

وقد عومل أهل الكتاب – مع مؤامراتهم ودسائسهم ضد الإسلام – معاملة خاصة ، فأبيح للمسلم أكل ذبائحهم ، والتزوج من نسائهم ، قال– تعالى – :﴿ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾ . (المائدة / 4) .

ورسم القرآن كذلك كيفية معاملة المسلمين لمخالفيهم في الدين ، قال – تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ (الممتحنة / 8)[1] .

وحتى بعد المفاصلة بين القرآن أنه لا تجوز البذاءة مع المخالفين ، ولا سب عقائدهم ولو كانوا وثنيين ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ﴾ . (الأنعام / 108) [2].

يأمر القرآن النبي – صلى الله عليه وسلم – والخطاب للمسلمين جميعا بعدم سب آلهة المشركين ؛ لأن في سب آلهتهم مفسدة كبيرة وهي سبهم لله تبارك وتعالى ، فسد هذا الباب ، قال الله – تعالى : ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ﴾ (الأنعام / 108) .

---

[1] - أسس التسامح في الإسلام حمودة السعفي مجلة الهداية1 سنة 20 ص 55 .
[2] - من روائع حضارتنا مصطفى السباعي ص77 .

المبحث الثاني : التسامح مع المخالفين في الملة في السنة النبوية قولا وعملا

(أ) التسامح مع المشركين :

1. ففي الحديث المتفق عليه واللفظ للبخاري أن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – أخبر أنه غزا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قِبل نجد ، فلما قفل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قفل معه فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاه ، فنزل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتفرق الناس يستظلون بالشجر ، فنزل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تحت شجرة ، وعلق بها سيفه ، ونمنا نومة ، فإذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يدعونا ، وإذا عنده أعرابي ، فقال : " إن هذا اخترط عليَّ سيفي – وأنا نائم – فاستيقظت وهو في يده صلتا " ، فقال : من يمنعك مني ؟ " فقلت : الله – ثلاثا " ، ولم يعاقبه وجلس[1].

2. وقصته – صلى الله عليه وسلم – في دعوته لأهل الطائف ، وإيذائهم له وتحريضهم عليه سفهاءهم وعبيدهم ورميه بالحجارة معلومة مشهورة[2] ، وخروجه والدم يقطر من قدميه ونزول جبريل عليه لأخباره أن ربه يخيره بين إطباق الأخشبين عليهم والعفو عنهم .

3. وطلب منه– صلى الله عليه وسلم – الطفيل بن عمرو الدوسي أن يدعو على قومه ، حين أبطأوا عليه في الإسلام ، فدعا لهم قائلا : (اللهم اهد دوسا)[3].

4. وفتح – صلى الله عليه وسلم – مكة ، ودخلها منتصرا على قريش بعد ما فعلوا بالمسلمين الأفاعيل ، وألبوا الأحزاب عليهم ، فلم يزد – يوم الفتح – على أن قال لهم : " لا تثريب عليكم ... اذهبوا فأنتم الطلقاء " فماذا بعد هذا .

(ب) تسامحه مع اليهود :

لم يختلف تعامل النبي – صلى الله عليه وسلم – مع اليهود الذين يسكنون المدينة وما حولها عن تعامله مع المشركين ، فما أن أسس دولته – صلى الله عليه وسلم – في المدينة حتى عقد معهم معاهدة ساهمت في لم شتات المجتمع المدني،

---

[1] - صحيح البخاري بحاشية السندي 2 / 155 كتاب الجهاد ، باب من علق سيفه بالشجر .
[2] - سيرة ابن هشام 2 / 60 – 61 .
[3] - م . ن 2 / 24 .

وأطفأت نار العداوة التي كانت مستشرية في المدينة ، فسن لذلك قوانين التسامح والوفاق والحوار [1]، ولم تلغ هذه المعاهدة إلا بعد خيانة اليهود ، ومناصرتهم لأعداء المسلمين .

ومن مظاهر هذا التسامح – على مستوى الجماعة – تسليم النبي – صلى الله عليه وسلم – خيبر لهم بعد فتحها على أن يدفعوا شطر إنتاجها ، وخرج الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى بني النظير يستعينهم في دية العامريين بمقتضى معاهدة المدينة ، فلما خلا بعضهم ببعض قالوا : لن تجدوا محمدا أقرب منه الآن، فمن رجل يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فقال عمرو بن جحاش بن كعب : أنا . فأتى رسول الله –صلى الله عليه وسلم – الخبر فانصرف عنهم[2] .

أما على المستوى الفردي فواضح في قصة عفوه عن اليهودية التي أهدت إليه شاة مسمومة فقال لأصحابه : " أمسكوا فإنها مسمومة " ، ثم قال لها : " ما حملك على ما صنعت ؟ " . قالت : أردت أن أعلم إن كنت نبيا فسيطلعك الله عليه، وإن كنت كاذبا أريح الناس منك [3] .

(ج) تسامحه مع النصارى :

أخرج البيهقي في دلائل النبوة أنه لما قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم – دخلوا عليه مسجده – بعد العصر – فأراد الناس منعهم ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم : " دعوهم ! " فاستقبلوا المشرق ، فصلوا صلاتهم [4].

(د) التسامح مع من آذاه من المسلمين :

ففي الصحيحين– واللفظ للبخاري – بينما النبي – صلى الله عليه وسلم – يقسم جاء عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي فقال : اعدل يا رسول الله ، فقال : " ويحك ، ومن يعدل إذا لم أعدل " ، قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، ائذن

---

[1] - محمد صلى الله عليه وسلم رائد التسامح ، حمادي اليوسفي مجلة الهداية العدد4 سنة 20 ص 34 .
[2] - سيرة ابن هشام 2 / 212 .
[3] - سنن البيهقي الكبرى ص8 / 46 .
[4] - دلائل النبوة 5 / 382 .

لي فأضرب عنقه ، قال : " دعه ، فإنه له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاته، وصيامه مع صيامه ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ... " [1].

وفي الصحيحين أيضا – واللفظ لمسلم – عن أنس بن مالك قال :جاء أعرابي فبال في طائفة من المسجد فزجره الناس ، فنهاهم النبي – صلى الله عليه وسلم – فلما قضى بوله أمر النبي – صلى الله عليه وسلم – بذنوب (دلو) من ماء فهريق عليه)[2] .

المبحث الثالث نماذج من تسامح الصحابة

لم يقتصر التسامح لدى المسلمين على حياة الرسول – صلى الله عليه وسلم – بل استمر بعد وفاته ، وقد جسده الصحابة قولا وعملا ، وسيرتهم زاخرة بذلك ، غير أني سأقتصر على جلب أمثلة محدودة لعدم اتساع هذه الورقة للاستيفاء الذي يلزمه مجلدات .

1. غرَّم علي بن أبي – كرم الله وجهه – أحد المسلمين ثمن خنزير قتله لأحد النصارى ، وقال : إنما أعطيناهم الذمة على أن يتركوا يستحلون في دينهم ما كانوا يستحلون من قبل [3].
2. وقصة القبطي مع ابن عمرو بن عبد العاص – وكان أبوه واليا على مصر– الذي سابقه فسبقه القبطي ، فضربه ابن الوالي ، فاشتكاه إلى الخليفة عمر بن الخطاب ، فاستدعى الخليفة الوالي وابنه ، وأمر القبطي بالاقتصاص ، فاقتص ممن ضربه ، وقال عمر كلمته المشهورة التي أصبحت مثلا سائراً : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً)، وقال للقبطي : انصرف راشداً ، فإن رابك ريب فاكتب لي) [4].
3. وقد شكت إلى عمر بن الخطاب امرأة مسيحية من سكان مصر أن عمرو ابن العاص قد أدخل دارها في المسجد كرها ، فيسأل عمراً عن ذلك ، فيخبره أن المسلمين كثروا ، وأصبح المسجد يضيق بهم ، وفي جواره دار هذه المرأة ، وقد

---

[1] - صحيح البخاري (مع فتح الباري12 / 258 – 261) .
[2] - م . ن 1/ 279 .
[3] - صور من تسامح الحضارة الإسلامية مع غير المسلمين سلامة محمد البلوي ص22 .
[4] - تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص نقلا عن المصدر السابق ص24 .

عرض عليها ثمن دارها ، وبالغ في الثمن فلم ترض ، مما اضطر عمرو إلى هدم دارها وإدخال بقعتها في المسجد ، ووضع قيمة الدار في بيت المال ، تأخذه متى شاءت ، ومع أن هذا مما تبيحه القوانين في كثير من الدول ، وهي حالة يعذر فيها عمرو بن العاص على ما صنع ، فإن عمر لم يرض بذلك ، وأمر عمراً أن يهدم البناء الجديد من المسجد ويعيد إلى المرأة المسيحية دارها كما كانت [1].

المبحث الرابع نماذج من التسامح الإسلامي في عهد التابعين وتابعيهم :

وإذا وصلنا إلى عهد التابعين ، فإننا سنجد سيرة عمر بن العزيز تطفح بالنماذج من إنصاف أهل الذمة والتسامح معهم ، وهذه بعضها :

1. جاء وفد من يهود مصر إلى عمر بن عبد العزيز يتظلمون من القاضي عبد الله بن حجيرة الأصغر مدعين أنه قبض منهم مالا ولم يعده ، فأقر القاضي أنه قبض منهم مالا ، وادعى أنه أعاده إليهم ، فقال عمر : فهل عندك بينة ؟ فقال: لا ، فقال : غرمت يا ابن حجيرة وضمنت . ثم تذكر ابن حجيرة أن له بينة ، فشهد له رجال ، منهم والد المحدث عبد الله بن لهيعة [2].
2. وكان عمر بن عبد العزيز يسأل البريد عن أحوال أهل الذمة [3]. وهذا تطبيق لتوصية الرسول – صلى الله عليه وسلم – بهم ، فقد كان يقول : " ألا من ظلم معاهدا وانتقصه ، وكلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة " [4].
3. بل ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أبعد من ذلك فكتب إلى عدي بن أرطأة : (وانظر من قِبَلك من أهل الذمة من كبرت سنه ، وضعفت قوته ، وولت عنه المكاسب ، فأجر عليه من بيت المال ما يصلحه) [5].
4. وقد تولى أهل الذمة مناصب عالية في الدولة الإسلامية منذ عهد مبكر فمعاوية يستعمل أسرة (سرجون) المسيحية في الإدارة المالية ، وظل أفرادها

---

[1] - من روائع حضارتنا مصطفى السباعي ص79 .
[2] - رفع الإصر عن قضاة مصر 2 / 284 .
[3] - سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم .
[4] - السنن الكبرى للبيهقي 9 / 205 .
[5] - الأموال لأبي عبيدة ص 50 .

يتوارثون الإدارة عدة سنوات ، وكان (ما سرجويه) اليهودي طبيبا لمروان بن الحكم [1].

[1] - صور من تسامح الحضارة الإسلامية ص49 .

الفصل الثاني

التسامح بين المسلمين

لابد للتمهيد لهذا الفصل من طرح الأسئلة التالية :

هل اختلف المسلمون ؟ وهل يجوز هذا الاختلاف ؟ وماذا ترتب على هذا الاختلاف ؟

خلق الله الناس بقدرات متفاوتة وذكاء مختلف ، وهذه مسألة لا تحتاج إلى برهان ، وترتب على هذا التفاوت اختلاف في الفهوم ، فاختلفت تبعا لذلك الاجتهادات فيما ليس فيه نص قطعي الثبوت والدلالة .

المبحث الأول اختلاف الصحابة في حياته–صلى الله عليه وسلم–وتسامحهم:

اختلف الصحابة وتفاوتت اجتهاداتهم في حياة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وبعد مماته ، إلا أن اختلافهم في حال حياته كان يصل إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – فإما أن يخطئ الجميع ، وإما أن يصوب الجميع ، أو يخطئ أحدهم ويصوب الآخر ، ففي كل الحالات المرجوع إليه هو ما صوبه – صلى الله عليه وسلم .

فمن القسم الأول أن عمار بن ياسر وعمر بن الخطاب – رضي الله عنهما – كانا في سفر فأجنبا ، فأما عمر فلم يصل ، وأما عمار فتمعك في التراب فصلى ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم – فقال : " إنما كان يكفيك هكذا " ، وضرب النبي – صلى الله عليه وسلم – بكفه الأرض ونفخ فيها ، ثم مسح بها وجهه وكفيه [1].

ومن القسم الثاني ما حدث لرجلين من أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – خرجا في سفر فحضرت الصلاة وليس معهما ماء ، فتيمما صعيدا طيبا فصليا ، ثم وجدا الماء في الوقت ، فأعاد أحدهما الصلاة والوضوء ، ولم يعد الآخر ، ثم أتيا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فذكرا ذلك ، فقال للذي لم يعد : " أصبت السنة وأجزأتك صلاتك " ، وقال للذي توضأ وأعاد : " لك الأجر مرتين " [2].

---

[1] - رواه البخاري (حاشية السندي1 / 70 – 71) كتاب التيمم : باب المتيمم هل ينفخ فيهما وما بعده .

[2] - سنن أبي داوود 1/ 146 كتاب الطهارة ، باب في المتيمم يجد الماء بعد ما يصلي في الوقت رقم الحديث338 .

ومن القسم الثالث : ما فعله الرجل الذي استلب سلب الذي قتله أبو قتادة – في غزوة حنين – عندما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم : " من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه " ، وقال الرجل الذي أخذ عليه السلب مصدقا ادعاء أبي قتادة : صدق يا رسول الله ، وسلبه عندي ، فأرضه عني ، وهذا اجتهاد منه ، فرفض أبو بكر أن يعطي السلب لغير القاتل ، فقال الرسول : " صدق " [1] وهذا تصويب لاجتهاد أبي بكر .

المبحث الثاني اختلاف الصحابة بعد وفاته–صلى الله عليه وسلم– وتسامحهم:

لما توفي الرسول – صلى اللله عليه وسلم – اختلف الصحابة في بيعة خليفة من بعده ، فالمهاجرون يريدون الأمير منهم ، والأنصار كذالك ، وتقارعوا بالحجة ، فبويع أبو بكر ، فانطفأت الفتنة .

وفي عهد عثمان ثار خلاف كبير ، وبعد مقتله اختلف علي مع معاوية، وعائشة وطلحة والزبير مع علي – رضي عن الجميع – ووصل الأمر إلى الاقتتال [2]، وكلهم مسلمون مؤمنون لم يكفر بعضهم بعضا، وقد جعلوا نصب أعينهم قوله تعالى :﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ... ﴾ (الحجرات/ 9) فقد وصفهم الله بالإيمان مع اقتتالهم .

قال ابن تيمية : "ولهذا كان السلف – مع الاقتتال – يوالي بعضهم بعضا موالاة الدين ، ولا يعادون كمعادة الكفار ، فيقبل بعضهم شهادة بعض ، ويأخذ بعضهم العلم عن بعض ، ويتوارثون ويتناكحون ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم ببعض ، مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك "[3] .

وفي وقعة الجمل قال الطبري : " وانتهى إليها (عائشة) علي فقال : كيف أنت يا أمَّه ؟ قالت بخير ، قال : يغفر الله لك . قالت : ولك " [4].

---

[1] - والحديث أخرجه البخاري (حاشية السندي2 / 197) باب استحاق القاتل سلب القتيل كتاب الجهاد ، باب من لم يغمس الأسلاب ومسلم (شرح النووي)4 / 350 – 353 كتاب الجهاد والسير .

[2] - ينظر تاريخ الأمم والملوك للطبري2 / 241 ، 661 ، 714 و 3 / 11 ، 40 ، 71 وما بعدها .

[3] - مجموع الفتاوى3 / 285 .

[4] - تاريخ الأمم والملوك3 / 55 .

ويؤيد ما قلناه سابقا أن عليا – كرم الله وجهه –عندما سئل عن الخوارج الذين ناصبوه العداء : أكفار هم ؟ أجاب على الفور بقوله : هم من الكفر فروا .

وقد بلغ بهم التسامح إلى درجة أنهم كانوا يتناقشون ويتناظرون حتى أثناء حروبهم، فقد ذكر أن الخوارج في حرب المهلب وقطري بن الفجاءة يتواقفون ويتساءلون بينهم عن أمر الدين وغير ذلك ، على أمان وسكون ، فتواقف يوما عبيدة بن هلال اليشكري من الخوارج مع أبي حرابة التميمي من جيش الجماعة ، فقال عبيدة : يا أبا حرابة إني سائلك عن أشياء أفتصدقني في الجواب عنها ؟ قال نعم ، إن ضمنت لي مثلك ذلك ، قال فعلت . ثم جرت بينهما أسئلة وأجوبة [1].

ومع بعد بعض الفرق عن بعض حتى في أمور عقدية ، فإن التسامح والإنصاف لم يمنع تسميتهم بالمسلمين ، فهذا أبو الحسن الأشعري المتوفى سنة 330 هـ في كتابه "مقالات الإسلاميين" يقول :" اختلف الناس بعد نبيهم – صلى الله عليه وسلم – في أشياء كثيرة ، ضلل بعضهم بعضا ، وبرئ بعضهم من بعض ، فصاروا فرقا متباينين ، وأحزابا مشتتين ، إلا أن الإسلام يجمعهم ويشتمل عليهم " [2].

بل نذهب إلى أبعد من ذلك حينما نرى أن بعض الصحابة اختلفوا في أمور تتعلق بالعقيدة ، دون أن يؤدي ذلك إلى فرقة ، فهذا ابن عباس – رضي الله عنه – يثبت أن محمداً – صلى الله عليه وسلم – رأى ربه ليلة الإسراء ، وهذه عائشة رضي الله عنها تنفي ذلك قائلة : من قال إن محمدا رأى ربه فقد أعظم الفرية .

ويلخص ذلك ابن تيمية بقوله: " وتنازعوا في مسائل عليمة اعتقادي ة ، كسماع الميت صوت الحي ، وتعذيب الميت ببكاء أهله ، ورؤية محمد – صلى الله عليه وسلم – ربه قبل الموت ، مع بقاء الجماعة والألفة " [3].

وقد ناظر عبد الله بن عباس – رضي الله عنه –الخوارج ، ووقف معهم طويلا ، وأكمل المناظرة معهم – الإمام علي – كرم الله وجهه – فتذكر بعض الروايات

---

[1] - تاريخ المذاهب الإسلامية لأبي زهرة ص68 .
[2] - مقالات الإسلاميين للأشعري1 / 34 .
[3] - مجموع الفتاوى لابن تيمية19 / 123 .

التاريخية أنهم دخلوا في طاعته من عند آخرهم [1]، بينما يذكر بعضها الآخر أن بعضهم رجع ، وبقي أغلبهم على مذهبه[2] .

ولا يتسع المقام للحديث عن مناظرات لطيفة وعنيفة جرت بين كثير من الفرق من سنة وشيعة ومعتزلة وغيرها ، بل بين المسلمين من جهة وأهل الكتاب من جهة أخرى ، ومع ذلك لم نسمع في القرنين الأول والثاني أن معارك دموية أو تفرقا في المجتمع حدث بسبب ذلك ؛ لأن هذه المناقشات جرت في جو من الحرية وعدم الكبت ، وكانت الحجة هي المسيطرة .

المبحث الثالث التسامح في حالة الاختلاف في الفروع :

أما الاختلافات في الفروع الاجتهادية فأكثر أن تحصي ، وأسباب هذه الاختلافات ألفت فيها المصنفات قديما وحديثا ، وحسبنا في هذه الورقة أن نجلب بعض الأمثلة مؤكدين أن هذا الاختلاف مع شدته والمناظرة فيه في بعض الأحيان ، وعدم رجوع أحد الفريقين في أغلب الأحيان ، إلى رأي صاحبه ، ما لم يظهر أحد الطرفين نصا صريحا ثبوتا ودلالة .

أولا الاختلاف بين الصحابة :

قدمنا أن الصحابة اختلف اجتهادهم في عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم وكان الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – يتولى تخطئة المخطئ وتصويب المصيب ، فلما توفي حدث خلاف في بعض الفروع التي لم يبينها الوحي بنوعيه، ولا سبيل إلى معرفة اليقين في المسألة ، وهذا يحدث فيما لا نص فيه ، أو في احتمال النص لأكثر من حكم . قال القرطبي – رحمه الله – عند تفسير قوله تعالى: ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾ (آل عمران / 103) :

" وليس فيه دليل على تحريم الاختلاف في الفروع ، فإن ذلك ليس اختلافا ؛ إذ الاختلاف ما يتعذر معه الائتلاف والجمع ، وأما حكم مسائل الاجتهاد ، فإن الاختلاف فيها بسبب استخراج الفرائض ودقائق معان الشرع ، وما زال الصحابة

---

[1] - تاريخ الجدل لأبي زهرة ص166 – 167 .

[2] - إعلام الموقعين لا بن القيم1 / 214 – 215 .

– رضوان الله عليهم – يختلفون في أحكام الحوادث ، وهم مع ذلك متكاتفون ، وإنما منع الله اختلافا هو سبب الفساد)[1] .

المبحث الرابع نماذج من هذا الاختلاف الذي يصحبه التسامح

فمن أمثلة ذلك :

1. عدة الحامل المتوفى عنها زوجها :

كان علي وابن عباس – رضي الله عنهما – يفتون بأن المتوفى عنها زوجها – إذا كانت حاملا – فعدتها أبعد الأجلين ، وذهب جمهور الصحابة ، منهم أبو هريرة وأم سلمة – رضي الله عنهما – إلى أن عدتها تنتهي بوضع حملها [2].

2. ميراث الجد والإخوة :

اختلف أبو بكر الصديق وابن عباس مع زيد بن ثابت في ميراث الإخوة مع الجد ، فذهب الأولان إلى حجب الإخوة بالجد باعتباره أبا ، وذهب زيد إلى توريثهما معه [3].

ومع هذا الاختلاف وافتاء كل برأيه فلم تحدث فرقة في الأمة بل ولم يؤثر ذلك شيئا في الأخوة بينهما ، وهذا أمر لا يحتاج إلى جلب أدلة .

ثانيا الاختلاف بين التابعين :

ازداد الخلاف توسعا في عصر التابعين ؛ لأن النوازل كثرت وتنوعت ، فكثرت – تبعا لذلك – الاجتهادات ، وكلهم هدفه الحق ، ولما كانت هذه الاجتهادات لها سندها الشرعي ، لذلك لم تؤثر في علاقاتهم وأخوتهم حتى ولو تناظروا وأغلظ بعضهم لبعض في الكلام ، وهذه بعض المسائل التي جرى فيها الخلاف :

1. ذهب سعيد بن المسيب ، والأوزاعي ، ومن قبلهما معاوية ، ومعاذ بن جبل، ومحمد بن الحنفية ، ومحمد الباقر إلى أن المسلم يرث الكافر، ونسبه الإمامية إلى علي – رضي الله عنه [4].

---

[1] - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي4 / 159 .
[2] - الاستذكار 17 / 175 .
[3] - إعلان الموقعين 1 / 615 .
[4] - كتاب الخلاف للطوسي4 / 23 – 24 .

2. كما ذهب سعيد أيضا إلى أن المبتوتة يحلها لزوجها العقد ولو بلا دخول [1] ، ولم يوافقه كثير من التابعين على ذلك .

ثالثا الاختلاف بين الأئمة أصحاب المذاهب الفقهية :

ثم زاد الاختلاف في الفروع عند نشأة المدارس الفقهية المختلفة لازدياد الواقعات وتعقدها ، وتناظر الأئمة مشافهة وكتابة ، وخير مثال على المشافهة مناظرة الشافعي للإمام محمد بن الحسن الشيباني [2]. وعلى المناظرة الكتابية ما جرى بين الإمام مالك والإمام الليث بن سعد [3].

أما الأمثلة على اختلاف أصحاب المذاهب الفقهية المعتبرة فلا يمكن جمعها في كتاب بله في ورقات ، لكن الذي يهمنا هنا هو التسامح الذي اتصف به هؤلاء الأئمة نحو مخالفيهم ، بل وتقليدهم في بعض الأحيان ، ومن أمثلة هذا التسامح الذي تحول في ظروف ما إلى تقليد للمخالف :

1. استخلف الخليفة الإمام أبا يوسف صاحب أبي حنيفة في صلاة الجمعة ، فصلى بالناس ، ثم ذكر أنه كان محدثا ، فأعاد ، ولم يأمر الناس بالإعادة ، فقيل له في ذلك ؟ فقال : ربما ضاق علينا الشيء فأخذنا بقول إخواننا المدنيين ، ومعلوم أن أبا حنيفة يرى إعادة الجميع[4] .

2. اغتسل أبو يوسف في الحمام ، وبعد صلاة الجمعة أخبر أنه كان في بئرها فارة ميتة ، فلم يعد الظهر ، وقال : نأخذ بقول إخواننا أهل المدينة : إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا .

3. وروي عن ابن المبارك أنه قال : صليت إلى جنب أبي حنيفة فرفعت يدي عند الركوع وعند الرفع منه ، فلما أنقضت صلاتي قال لي : أردت أن تطير ؟

4. فقلت له : وهل من رفع في الأولى يريد أن يطير ؟ فسكت [5].

---

[1] - الاستذكار 16 / 156 .

[2] - ينظر المدارك 1 / 82 – 83 ، 150 – 151 وتاريخ الجدل لأبي زهرة ص294 .

[3] - ينظر المدارك للقاضي عياض1 / 41 – 43 وإعلام الموقعين3 / 94 – 100 .

[4] - مجموع الفتاوى لابن تيمية20 / 364 – 365 .

[5] - التمهيد لابن عبد البر 9 / 229 .

خاتمة

هكذا رأينا هذا الاختلاف المتنوع ، وهذا التسامح الذي يقابله وهذه المناظرات الشديدة ، وهذا الأدب الذي يصحبها ويتبعها ، ورأينا كيف تعامل المسلمون مع مخالفيهم في العقيدة ، وقد علمهم القرآن الكريم وسلوك رسولهم – صلى الله عليه وسلم – ذلك .

وإني في نهاية هذه الورقة أدعوا الشباب المسلم إلى كثرة القراءة في تراث أسلافنا، الذي لا يعادله تراث عند أمة من الأمم ، فيأخذون منه العبرة ويقومون سلوكهم وفق ذلك ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

أهم المصادر والمراجع

الأشعري ، أبو الحسين : مقالات الإسلاميين تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد المكتبة العصرية بيروت 1419 هـ 1999 م .

البلوي ، سلامة محمد الهرفي : صور من تسامح الحضارة الإسلامية مع غير المسلمين مكتبة الصحابة – الإمارات – الشارقة ط[1] 1424 هـ 2003 م .

ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم : مجموع الفتاوى جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي دار عالم الكتب الرياض 1412 هـ 1991 م .

ابن الجوزي ، جمال الدين أبو الفرج : تاريخ عمر بن الخطاب دار الرائد العربي – بيروت 1402 هـ 1982 م .

ابن حجر ، أحمد بن علي العسقلاني : رفع الإصر عن قضاة مصر تحقيق حامد عبد المجيد وآخرين .

أبو زهرة محمد : تاريخ المذاهب الإسلامية دار الفكر العربي القاهرة .

تاريخ الجدل دار الفكر العربي تصوير الطبعة سنة 1934 م.

السباعي ، مصطفى :" من روائع حضارتنا دار الإرشاد بيروت ط[2] 1388 هـ 1968م .

الشكعة ، مصطفى : إسلام بلا مذاهب الدار المصرية اللبنانية – القاهرة ط[11] 1416هـ 1996 م .

الطوسي ، محمد بن الحسن : كتاب الخلاف ، تحقيق السيد علي الخراساني وآخرين ، مؤسسة النشر الإسلامي قُم 1414 هـ .

ابن عبد البر ، يوسف بن عبد الله : التمهيد تحقيق جماعة من العلماء وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب .

الاستذكار ، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي دار قتيبة دمشق – بيروت دار الوعي حلب – القاهرة ، ط[1] 1414هـ 1993 م .

أبو عبيدة القاسم بن سلام : الأموال ، تحقيق محمد خليل هرَّاس ، دار الكتب العلمية – بيروت ط[1] 1406 هـ 1986 م .

القرطبي . محمد بن أحمد : الجامع لأحكام القرآن دار الكتاب العربي – القاهرة 1387 هـ 1967 م . مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية .
ابن القيم ، محمد بن أبي بكر : إعلام الموقعين ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . بدون تاريخ ومكان النشر .